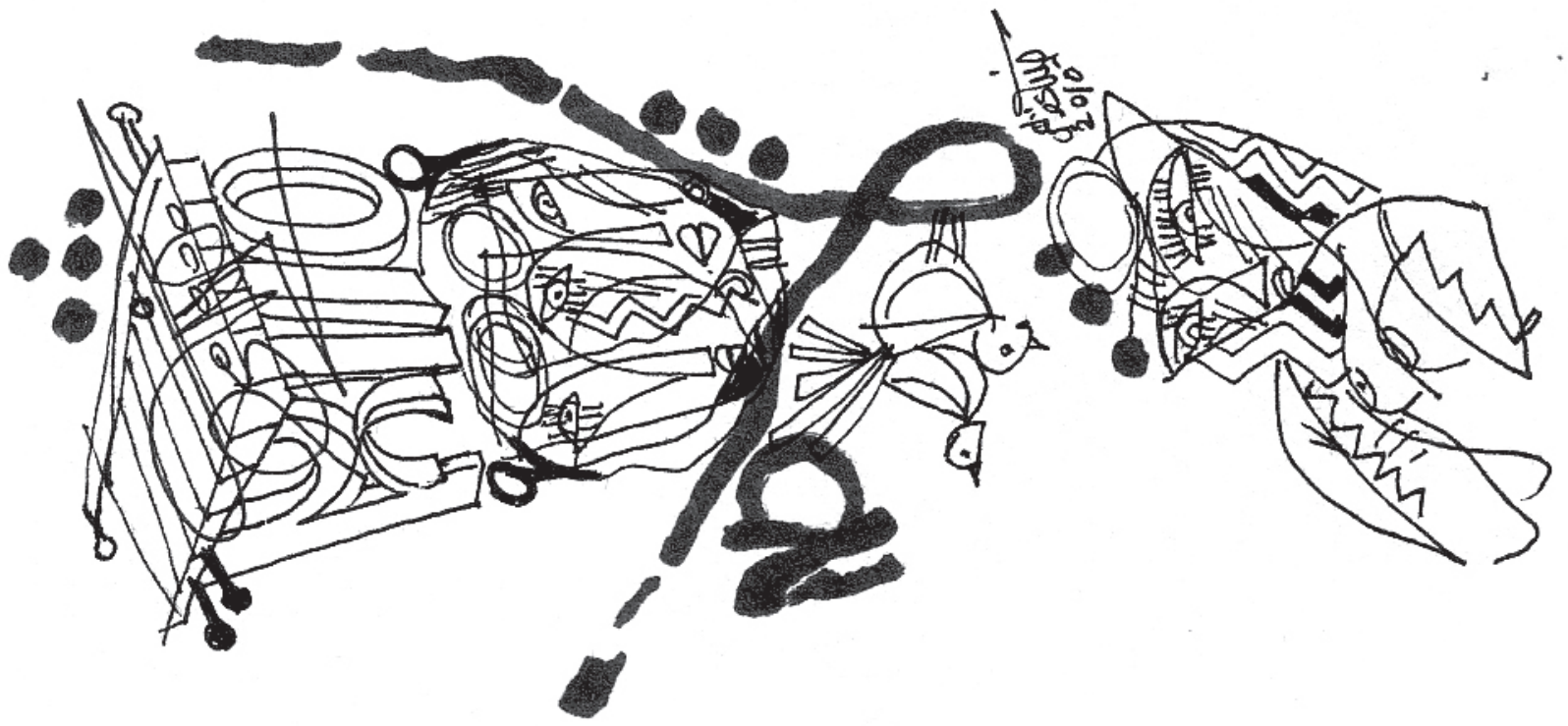

الشعر والسياسة (١-٦)

ياسين طه حافظ

حين فكّرت بالكتابة في موضوع الشعر والسياسة، لم تكن أمامي أمثلة واضحة تفرز القصيدة السياسية عن قصيدة النقد الاجتماعي. ولا القصيدة التي تتبنى السياسة موضوعاً كلياً وتحتفظ بامتيازها الشعري.

لدينا قصائد وطنية عامة وقصائد تهجو الحكومات وقصائد تحريضية وقصائد مما يسمى بقصائد الضد. لكن هل هذه قصائد سياسية؟ وكيف هي السياسة في الشعر؟

ثم هل تقع قصائد مدح الحكام والزعماء وهي تتضمن موالاة واعترافاً أو مبايعة، بالتعبير الإسلامي، للحاكم أو الزعيم في دائرة القصائد السياسية وبهذا تكون قصيدة كعب بن زهير مثالاً قديماً لذلك؟ أم أن أمثلتنا يمكن أن تبدأ بمقاطع من شعر امرئ القيس وهي تشير إلى حدث سياسي، هو انتزاع الملك من أبيه وسعيه لاسترداده، حتى ليستعين بدولة مجاورة؟ هنا تصبح هاملت عملاً شعرياً سياسياً لان عمه اغتصب الملك من أبيه وثمة اتصالات بالنرويج وهي دولة اخرى.

لكن من حيث الفن وفهمه، هل هذا شعر سياسي؟ تظل الإجابة غير مقنعة إلا إذا اتجهنا في البحث وجهة أخرى. فنبدأ من حقيقة أن القصيدة السياسية تتلبس المشاكل العامة والشاعر وسيط يدوّر الأحداث أو أن الأحداث تدور خلاله. فيكون دانتي في الكوميديا الإلهية شاعراً سياسياً، أعلن أحكامه وإداناته لخصومه السياسيين والفكريين وألقاهم في الجحيم. وان كلا من ييتس وجيمس جويس ومن بعد اليوت، قد أعطى مثلاً لذلك.

هنا يمكن أن نجد بداية جيدة لكن، ييتس سُحِرَ بالسياسة ومع ذلك كره السياسيين والصحفيين. إذن بدأ الشعر يضيق بتدخل العنصر السياسي الخشن في نعومته. كتب ييتس كمّاً كبيراً للصحافة وصار سيناتوراً في مجلس حكومة ايرلندا الحرة في ١٩١٩ وكان احد مؤسسيها، لكنه بقي جمالياً من الطراز الأول، وفناناً أصيلاً في ابتداع القصيدة حتى قال عنه اليوت: "ييتس أعظم شاعر في عصرنا" وظلت قصيدة ييتس حتى اليوم مثالا جماليا وقد تضمنت افكاراً وإشارات سياسية.

يقول ييتس: "إننا نجعل من خصومتنا مع الآخرين بلاغة ومن خصومتنا مع أنفسنا شعراً".

وهو في أوج الاحتفال بانتصار ايرلندا، ظل ييتس الشاعر المبدع وهو احد زعماء الثورة. وهو ماض إلى مجلسها الثوري مرّ بعامل يرصف الحجارة في الطريق فبدأ هذا يهتف له وللثورة والثوريين فقال له ييتس:

نعم، ولكنك ستظل ترصف الحجارة في الطريق!

وكونه سيناتوراً، نائباً، لم يمنعه من القول:

طغى الدم القاتم وفي كل مكان
غاض احتفال البراءة
الأفاضل يفتقدون الإيمان الواسع
والأراذل مفعمون بالهياج.

هذا الكلام المتسامي، يخالف الرأي بأن غياب السياسة عن العمل يعني افتقاد الإحساس بالمضاد المزعج أو العام المرفوض مما يجعل القصيدة تفشل في العرض الجماهيري وتخسر في الذاتي الفني. في هذه القصيدة "مثلاً" رفض واضح للسوء وإبداع واضح في الشعر.

لنا أمثلة جيدة في القصيدة التي تبنت جواً أو فكراً سياسياً، ولنا أمثلة في القصيدة التي نأت عن هذه الأفكار. عملياً، ما يقرر أهمية القصيدة، إذا توفر الفن، هو ليس الموضوع الكلي، ولكن زاوية النظر إلى الأحداث أو الناس أو الأشياء.

وسواء كانت الكتابة شعراً أو نثراً، فأنت تحسّ: أن لولا الميل اليساري في هذه القصيدة لما امتازت هذا الامتياز واحياناً العكس، لولا اليمينية المُترفة أو المترفّعة في تلك، لما ارتضيناها. هذا يقول لنا كيف نقرأ نيرودا وناظم حكمت والبياتي عندنا وكيف نقرأ وردزورث وبليك وادونيس عندنا. ومن قال ان ادونيس ليس ايديولوجيا، اكثر من هذا، ليس سياسياً؟ كثير من الشعراء، وبينهم عدد من العراقيين الحداثويين، تجد في قصيدته الحالين، وبخاصة في القصائد الطوال ذات الخلفية الواقعية. فتبدو التأملات ذات طبيعة يمينية، وحين تأتي الإدانات الاجتماعية تبدو ذات طبيعة يسارية.

في الادب الانجليزي قصص كبلنج مثل قصائد ييتس وراء جماليتها سياسة. وان كانت جذور الاثنين في بقعتين مختلفتين، كبلنج في برمنجهام وييتس في دبلن. والواقع هنا يختلف عن الواقع هناك. عموما هذه يعني ان أي شاعر جمالي يمكن ان يكتب قصيدة وراءها مادة سياسية، حتى براوننج العاشق المعروف بقصائد الحب، كتب "حكاية ايطالي في انكلترا" وقد تضمنت مغامرة سياسية مثيرة. وقصيدة اودن وهو اكبر شاعر سياسي في الثلاثينيات The Quarry "الضحية" هي قصيدة سياسية عالية المستوى وكذلك "رسالة الى لورد بيرون" وهما مثالان لتواجد الحالين في العمل الشعري الواحد.

حين يكون الفن في القصيدة هو السيد، تظل الإنسانية فيها عامرة أي حين تكون القصيدة متقدمة فنياً تتقدم معها الرؤية السياسية وتكون ابعد تأثيراً . يقول ييتس في طيار ايرلندي:

أولئك الذين أقاتل، لا اكرههم
أولئك الذين أذود عنهم لا أحب.

في الفن الرفيع تصفو الإنسانية وظلالها تشمل الجميع. تتحول السياسة في القصيدة الفنية إلى تأمل والكراهة إلى محبة ويتحول الحدث اليومي إلى شعر!

قناديل

▪ لطفية الدليمي

الغورنيكا وغورنيكات زمننا

عندما زرت متحف الملكة صوفيا للفن الحديث في مدريد ٢٠٠٤ وقفت برهة في حضرة الغورنيكا - تأملتها وبكيت، بكيت مرة من أجلها، من أجل القرية الباسكية الصغيرة التي كانت معقلا للثوار الأسبان سنة ١٩٣٧ وقصفتها طائرات النازية الألمانية بالاشتراك مع طائرات الفاشية الايطالية للقضاء على الثوار.. وبكيت ثانية من أجل غورنيكاتنا الألف قبل الاحتلال وبعده - وكانت بغداد قد دمرت بطائرات قوات التحالف وانهارت بيوتنا ومدارسنا ومتاحفنا وجسورنا وكانت لنا في كل صباح غورنيكا تصرخ من أعماق الخراب المابعد حداثي، كانت الغورنيكا بلونها الرمادي والأبيض والأسود تعطي انطباعا بطيف لوني ذي اخضرار شفيف لعل سببه انعكاسات الأضواء التي حددت مساقطها بدقة على اللوحة.

لما بكيت أمامها سمعتها تنشج بصوت كتيم، كانت وجوه نسائها الثلاثة تحتل مركز اللوحة: المرأة التي تحمل المصباح والمرأة الصارخة والثالثة الهاربة، كن يشاركنني التفجع ولما أدركت الغورنيكا دموعي التي تساقطت على الرخام وبللت الحبل الحريري السميك الذي يحول بيني وبينها، رأيتها تقترب مني وتتخطى حاجز الحبال ويلتمع شعاع مصباحها المحطم على وجهي وكأنها كانت تحاول عناقي وكأنها استشفت لوعتي على غورنيكات بلادي الموزعة مابين حلبجة ومدن العراق السبية، وكأنها كانت تهمس لي: ستبقى الغورنيكات مابقي الانسان يتبع شهوة الدم، فهذا قدر البشرية ودور الفن أن يصون شعلة الأمل.

الغورنيكا التي يفخر متحف الملكة صوفيا للفن الحديث في مدريد بأنها إحدى أهم معروضاته وأثمنها، لبثت سنوات طويلة في متحف الفن الحديث في نيويورك ثم نقلت إلى اسبانيا بعد رحيل الجنرال فرانكو وجرت احتفالات كبيرة باستعادتها ووقفت طوابير النساء والرجال أياما من اجل القاء نظرة على أيقونة الفن الحديث التي تتحدث عن مناهضة الحرب والتمسك بالامل والسلام ، فكانت ترى العجائز اللائي فقدن ابناءهن ورجالهن وعشاقهن في الحرب الاهلية يقفن امام الغورنيكا وتكاد وجوههن المخددة بالغضون العميقة وأسى الفقدان تتشابه مع الوان اللوحة الرمادية الحزينة، أما الشباب من الجنسين فقد كانوا يمرون أمام الغورنيكا بنوع من الزهو الممزوج بالعقلانية، يتظاهرون بالاهتمام أمام الألم الإنساني الذي جسدته لوحة بابلو بيكاسو الخالدة..

تحولت الغورنيكا خلال القرن العشرين من لوحة فنية تؤرخ لكارثة انسانية شهيرة الى رمز للفن الحديث كمثل السيمفونية التاسعة لبيتهوفن بالنسبة للموسيقى الكلاسيكية، لانها غدت أيقونة ثقافية تخاطب الجنس البشري في أنحاء عالمنا وتحث الناس على مناهضة الحروب والايمان بالامل والسلام حتى عدت أحد مصادر الثقافة الحديثة عن النزعات العنصرية التي اتبعتها النازية والفاشية ازاء البشر .. غادرت القاعة المخصصة للغورنيكا مع دموعي وشجن القلب، كانت ألوانها المتدرجة بين الرمادي والأسود والأبيض تغطي المرأى حتى أنني توقفت برهة أستعيد فيها قدرتي على البصر ومشاهدة أعمال فنية أخرى لبيكاسو وخوان ميرو وتابيس، وللتخفيف عن حزني دخلت القاعات المخصصة للاحتفال بمئوية سلفادور دالي عاشق فرانكو والذهب والذي كان يعلن بوقاحته المعروفة (انه يؤمن بإنسانية كل الرزايا ويردد دائما تبا للبشرية - أنا احتقرها) احدى القاعات كانت تعرض الإعلانات التي صممها دالي والاشرطة الإعلانية التي اشترك فيها ممثلا وعارضا للسلع: إعلانات عن الشيكولاتة والعلكة والجوارب النسائية والسيارات كان يعلن عن الزائل والتافه واليومي ليتمتع بملمس سبائك الذهب التي يطلبها بدل النقود ثمنا للوحاته - هكذا تتجاور في دنيانا على نحو ساخر عبقرية الانسانية لدى بيكاسو وعبقرية الجنون والجشع لدى سلفادور دالي.

الدرّاجي في الخميس الإبداعي

مطرب مزج غناء الريف بالمدينة

محمود النمر

من اجل أن نرسم صورة جديدة لمشهدنا الثقافي في العراق، ولكي لا ننسى مبدعينا الذين كانت لهم علامات واضحة في سفر الغناء العراقي، ضيف ملتقى الخميس الإبداعي امس المطرب عبد الجبار الدراجي، هذا الفنان، الشاعر، الملحن، المطرب والمؤدي، هو من طراز خاص، لا ينتمي إلى المقام أو الأبوذية، يمكن ان نسميه مدرسة عبد الجبار الدراجي في الغناء، بهذه الكلمات استهل الجلسة الناقد الموسيقي ستار الناصر، واصفا إياه فنانا لا تخلو بيوتات العراق من أغانيه وتسجيلاته التي تشكلت في ذاكرة الأم والأب والزوجة والحبيبة.

وتداعت ذكريات عبد الجبار الدراجي عبر خمسة عقود من الغناء وتأليف الأغاني وإحياء حفلات وتلحين أغان الى مطربات عربيات ، وكتابة نصوص إلى فنانين محليين استفاقت حناجرهم على أنغام عبد الجبار الدراجي، وكانوا يرددون أغانيه، وقال: أنا أحب الأدب وللأدباء فضل عليّ، فقد بدأت حياتي بقراءة مؤلفات ارسين لوبين ثم تطورت اطلاعاتي في الأدب فقرأت لمكسيم غوركي وفكتور هيجو ودستوفيسكي وجبران خليل جبران وعباس محمود العقاد وطه حسين، وكان اخرهم غاريثيا ماركيز في روايته الشهيرة (خريف البطرياك) ثم كتاب آخر لحيدر حيدر (وليمة لأعشاب البحر) واستمررت في القراءة، فيما أنا الآن منقطع عن القراءة .

وقال الدراجي : البلد الذي ينعدم فيها الفن والأدب والشعر والصحافة يتحول إلى غابة ، لقد جئت من محافظة كركوك عام ١٩٥٨، وقد نزلت في احد الفنادق في شارع الرشيد ، وقد شاهدت دليل تلفون وقد اتصلت بالإذاعة، وطلبت منهم مقابلتي فردّ علي المتكلم تعال إلى الإذاعة، وتصورت آنذاك أني أتكلم مع المدير العام، وعلى ما يبدو كان عامل الاستعلامات، وعندما وصلت إلى الإذاعة، تبين أن الموضوع طويل ويحتاج إلى انتظار طويل، ولكني صادفت الملحن عبد الفتاح حلمي وعرضت عليه الأغاني التي كتبتها وأخذها مني بعد أن استأذن مني ، وبعد مدة سمعت من الإذاعة أن المطربة - لميعة توفيق - تغني من ألحانه وكلماتي، وفرحت عندما سمعت اسمي يتردد في الإذاعة، وكانت أغنية "بعد الظلمة شفنه النور" و"من بعد الأحزان سرور" .

وأضاف الدراجي: وبعد ستة أشهر تأسست لجنة لقبول الأصوات الجديدة مكونة من الفنانين جميل سليم وروحي الخماش وغانم حداد وجميل بشير، هؤلاء عملاقة الموسيقى في العراق، وعند الاختبار غنيت للفنان حضيري أبو عزيز ورضا علي، ثم اختبروني على آلة البيانو لفحص صوتي بالآهات، وأنا لا اعرف ما يدور، وهذه بلغة الموسيقى تسمى الصولدج وقد قبلوني مطربا وكورس لسد النقص في الأصوات، وقد استفدت من عملي في الكورس لمعرفة المقامات التي كنت اجهلها، لأني كنت أعرف الغناء فقط ، وفي يوم من الأيام كتبت أغنية "تانيني صحت عمي يجمال" وكان المرحوم روحي الخماش وقد سألني عن كاتب الكلمات والملحن والمطرب، فأجبته كلها لي، فقال جيد جدا، وقال لي انك ستصبح مطربا مشهورا كما كان المطرب حمدان الساحر حيث كان يكتب ويلحن ويغني، واستمررت على هذا المنوال .

وقال الدراجي أغنياتي كانت مشهورة في البلدان العربية، ففي دولة الكويت كانت تباع أغنية - دكتور جرح الأولي عوفه.. جرح الجديد عيونك اتشوفه - بثلاثة دنانير، وكانت مسجلة على العود وكان جميل بشير يعزف لي ، بينما كانت أغاني أم كلثوم تباع بدينار ونصف.

واستمرت الأغاني "علمتني فاشلون احبك"، و"صبحه"، و"نازل يا قطار الشوك" التي غناها المطرب المصري إسماعيل شبانه .

كانت هناك الكثير من المداخلات من قبل الحضور، ثم قدم بعض الأغاني بمصاحبة الفرقة التي كانت معه ، وفي ختام الحفل قدم الأمين العام لاتحاد الأدباء ألفريد سمعان "لوح الإبداع" تثمينا لجهوده الإبداعية.

من الضفة الأخرى

"عندما كان العالم يتحدّث الفرنسية"

ترجمة : المدى الثقافي

ربما لم تعد الثقافة الارثوذكسية في فرنسا قوية كما كانت سابقا ، لكنها ما زالت فعّالة إلى حد ما، تُعلّم مواطنوها أن بلدهم اخترع الكثير مما يُقيَم الآن تحت اسم الحضارة. وحركة التنوير بدأت في باريس في ظل "النظام القديم"، بينما ثورة ١٧٨٩، نتاجها الأيديولوجي، عرّفت بقية أوربا بمفهوم التحرر السياسي.

مؤلف الكتاب، الباحث الفرنسي المتميز مارك فومارولي هو من بين الكهنة الكبار في هذه الديانة التي تعتبر فرنسا وعاءً لـ((الإشعاع، الشفافية، الأناقة والتهذيب)) . الكتاب الذي بين أيدينا الآن هو نسخة انكليزية من "عندما كانت أوروبا تتحدث الفرنسية"، نُشِر أول مرّة عام ٢٠٠١، وفيه يؤكد على نحو مثير الإيمان أن الفرنسية حديث مثالي للفكر. مقدمته المنطقية في أوروبا القرن الثامن عشر، حين ((كانت اللغة الفرنسية مألوفة أينما ذهبوا. باريس كانت الوطن الثاني لكل أجنبي، وفرنسا أصبحت موضوعا للفضول الجمعي الأوربي)).

في تتابع من المقالات التي بدت وكأنها منحوتة بإزميل، بعض منها بورتريهات مصغّرة وأخرى في شكل تخطيطات بيوغرافية، يقودنا فوماروليبشكل مهذّب خلال الصالونات الفرنكفونية ومدن القارة المنوَّرة، عبْر مشهد ثقافي يمتد من نابولي وبوتسدام إلى وارشو، ستوكهولم وسانت بترسبورغ.

نحن نلتقي جمعا متألقا - تقريبا كل فرد فيهم هو أرستقراطي ملكي. الاثنان العظيمان فردريك وكاثرين، هما أكثر الحضور جلاءً، بجانب ملكي السويد وبولندا غوستاف الثالث وسانسلاف بونيا توفسكي ، مرغريفة بايروث، أمير سافوي يوجين، المركيز دي دوفان والكونت الغاروتي. لكل واحد من هؤلاء، لم تكن الفرنسية مجرد لسان فرنسي لطبقة عالمية مثقفة، بل وسيلة للبقاء في عالم كان عديم الرحمة، رغم انشغاله الكامل بالكياسة، وغالبا يكون عنيفا على نحو حازم إزاء أولئك الذين يخرقون دساتيره المؤيدة للحكم المطلق. لا غرو أن اللورد تشسترفيلد، وفقا لبونياتوفسكي، دفع لمراسل صحفي باريسي كي يرسل له أحدث العبارات الفرنسية الملائمة ليمكنه استخدامها وسط معارفه اللندنيين .

يقدم متفرنسو فوماروليالممتازون مجموعة فخمة ممتعة من سيَر الحياة. البعض، مثل الأميرة ايكاترينا داشكوفا ، السفيرة المتجوّلة لحركة التنوير الروسية، أو اليعقوبي المنفي اللورد بولنغبروك، اللذين كانا معارضين (رُحَل) مثبتين في وطنهما، مع ذلك كانوا في الغالب خائبي الأمل بريفه مقارنة مع المدينة الكوزموبوليتية التي تركاها وراءهما .

آخرون ، ممن انتقلوا الى باريس ، غدوا تقريبا غاليين بحماسة أكثر من سكانها الأصليين. الدبلوماسي النابولي فرناندو غاليا ني، بعد عشر سنوات صاخبة في العاصمة، يغتاب الفلاسفة في صالوني مدام جوفران ومادموزيل لاسبيانس، طُرد من البلاد كبرسونا نون غراتا من قبل الوزير الأول للويس الخامس عشر. وهو عائد إلى نابولي، أعلن بحزن أن ((النبتات تُتلَف بتغيير التربة، وأنا كنت نبتة باريسية)). عدد منهم، مثل شارلوت - صوفي دالتنبورغ الجريئة ، لم يذهبوا في الواقع ابعد من ضفاف السين .

نوستالجيا وقحة لعصر يؤشر ذروة الإمبريالية الثقافية الغاليّة، تجعل من "عندما كان العالم يتحدث الفرنسية" ذي نبرة محرِّضة. لأولئك الذين ، مهما كانت نظرتهم إليها ، يسلمون بعيوب الحضارة الفرنسية - لماذا، على سبيل المثال، لم تتمكن من إنتاج شعر جدير بالاحترام بين عامي ١٦٥٠ و ١٨٠٠؟ - يظهر هذا الكتاب معجبا بذاته، يعرض بعمى مقصود واقعيات أوسع من الفترة التي يزعم استكشافها. بعض من دعاوى فوماروليغير دقيقة - لم يكسب لويس الرابع عشر حرب الوراثة الاسبانية - بينما الدعاوى الأخرى، مثل قوله أن الديمقراطية الحديثة ((ولدت في ظل " النظام القديم " في فرنسا)) ، هي بصراحة مضحكة .